تطور الدراسات الاستراتيجية: المرحلة الأولى من النشأة الى الحرب العالمية الثانية

إن ميدان الاستراتيجية قديم قدم التاريخ، فالاهتمامات بهذا الحقل تعود إلى أقدم دراسة في الاستراتيجية إلى القائد الفيلسوف الصيني Sun Tzu الذي كتب في حقبة زمنية تعود إلى القرن 5 ق م كتابه الشهير فن الحرب، كما تزامن مع هذه الفترة التاريخية بداية الفكر الاستراتيجي اليوناني، فكان يتم انتخاب 10 في كل مدينة لتحقيق أمنها، و كان المقصود بالاستراتيجية في هذه المرحلة: << فعالية استعمال الإمكانيات المدنية و العسكرية من أجل مفاجأة العدو في المواجهات العسكرية، و بالتالي كان التطور في البنايات الداخلية للمجتمعات>>، و لقد ميز اليونانيون Taktika عن Strategie كما يقول Dietrich Von Bulour كالآتي: الاستراتيجية هي الحركات التي تتم أثناء الحرب بين جيشين، لكن خارج دائرة المعارك المتبادلة، أي خارج الدائرة المرئية، مهارة الحركات التي تتم بوجود العدو، بحيث تكون إمكانية رؤيته قائمة دون قدرة مدفعيته على بلوغ الأهداف، هذه المهارة تسمى التكتيك، و يعتبر "الأرسباطيون" نسبة إلى اسبارطا، من بين الأوائل الذين كتبوا عن الاستراتيجية في تلك المرحلة، استنادا إلى تجاربهم في الصراع و الحرب و كانوا أول من قام بتعليم المبادئ الأولى للاستراتيجية لشبابهم من خلال معلمين عسكريين سموهم بالتكتيكيين و يعتبر Eneé de caza الأقدم و الأكثر شهرة القرن 4 قبل الميلاد، و قد قام بتأليف موسوعة عسكرية في عدة أجزاء، و في القرن الأول قبل الميلاد ظهر استراتيجي آخر و هو Onesandros لم يكتب كثيرا حول الحروب أو العلوم العسكرية، بل ترك لنا كتابا حول وظائف و مهام الجنرال، ثم جاء بعده Elien الذي الف كتاب أهداه إلى "طروادة"، و كان الهدف منه محاولة تفسير أفكار العلماء الاستراتيجيين الذين سبقوه، لكن الملاحظ أن الفكر الاستراتيجي اليوناني اعتمد بشكل كبير على الممارسات العملية أكثر من التنظير و هو ما نجده عند Thucydideعندما كتب عن تاريخ الحروب البلوبونيزية piloponnése[1].

[1] - صلاح نيوف، **مدخل الفكر الاستراتيجي**، الأكاديمية العربية المفتوحة في الدانمارك، كوبنهاغن، 2010، ص 39.

كما كتب الرومان في الموضوع، و أشهر كتبهم على الإطلاق شؤون عسكرية الذي بقي من أسرار الاستراتيجية في العصر الحديث، حيث أن الفكر الروماني تبنى مقاربة برغماتية تجاه ظاهرة الحروب و الصراعات، حيث يعتقد الكولونيل Reichel أن الرومان: " كان لديهم فكرا عسكريا أصيلا و جديدا، و صل إلى عمق الأشياء"، أما التفوق التكتيكي و الاستراتيجي الروماني خلال قرون متتالية، كان بسبب البنية التنظيمية الدقيقة للعقيدة العسكرية الرومانية، هذه البنية كانت ثمرة للممارسة و الخبرة كما يقول Polybe: " المرشحون للوظائف العامة كان عليهم المشاركة في عشر حملات عسكرية قبل اختيارهم من قبل المواطنين " و على الرغم من ذلك لم يتحول الفكر الاستراتيجي الروماني إلى موروث اكاديمي يشكل أدبا استراتيجيا رومانيا في النهاية، باستثناء بعض الأعمال مثل كتاب De Re militari للمفكر Caton، أو كتاب Taktika لـ Polybe ، أو كتاب " تعليقات عسكرية عند هوميروس للمفكر Frontisnus.

و تعتبر مرحلة النهضة مرحلة بسيطة بين العصور القديمة و العصر الحديث، و قد برز خلالها بعض المفكرين الذين اهتموا بظاهرة الحرب و كتبوا فيها دراسات قديمة، و لعل أشهر كتاب في تلك الفترة عن الحرب لميكافيلي الذي خصصته بكامله لدراسة هذه الظاهرة باحثا عن القوانين و المبادئ التي تحكمها.

كان العصر الحديث مليئا بالحروب، و كذلك الدراسات التي حاولت أن تصل إلى القوانين التي تحكمها، و بذلك تأثرت هذه المرحلة بتطور التفكير العلمي و بالإيمان القوي بأن العقل قادر على الوصول إلى قوانين لكل الظواهر الإنسانية، مثلما كان قادرا على الوصول إلى قواعد الظواهر الفيزيائية، فبرز كتاب من أمثال Raimondo، De Montecuccoli، Bonparte Napoleon، Baron Henri، De Jomini، و كذلك كل من Von Moltke the elder، karl Von Clausewitz.

لقد كان لبعض هؤلاء أثرا كبيرا على تطور الفكر الاستراتيجي، و أهم بدون منازع Clausewitz ، و تكمن أهمية Clausewitz في أنه كان أول من اعترف بخاصية ظاهرة الحرب و طبيعتها

المختلفة عن طبيعة الظواهر الإنسانية و الاجتماعية الأخرى و قد مكنه ذلك إلى أن يرى أن الحرب ما لم يراه معاصروه، فلقد تأثر معاصروه كثيرا بالعقلانية التي سادت خلال عصرهم، و اعتقدوا أنهم سيحققون بنظرتهم العلمية ما كان يبحث عنه كل سياسي و استراتيجي منظرا أو مطبقا أي الوصول إلى القوانين الاستراتيجية التي لابد أن تكون موجودة و ما على الباحث إلا ليكتشفها و العقل وسيلتهم في ذلك، لكن Clausewitz سلك مسلكا مخالفا لسلكهم لقد كان رجلا ميدانيا قبل أن يكون رجل علم[2]، و كل علم حصل عليه كان و هو يرتدي اللباس العسكري، لقد رأى الهزيمة و هو مساعد لأمير دولته، و ما من شك ان الهزيمة فاجأته و من ذلك تعلم درسا لم يتعلمه أسلافه و معاصروه، أن الحرب طبيعة خاصة و خصوصية هذه الطبيعة أنها مليئة بالمفاجآت، يعني أنه مهما كانت الحسابات لها دقيقة فهي في الأخير محكومة بالحظ مثل اي لعبة قمار و من ثم فهي غير محكومة بقوانين يمكن لعقل الإنسان البحث عنها و اكتشافها، لكن رغم ذلك كان Clausewitz أول من حاول أن يضع نظرية فلسفية للحرب، كلنه لم يحاول كثيرا الإجابة عن السؤال الذي شغل الجميع، و بدلا من أن يركز على سؤال كيف نفوز بالحرب طرح أسئلة أخرى أكثر أهمية من ذلك السؤال التقليدي فحاول التعريف بطبيعة الحرب من خلال الإجابة عن سؤاله الهام: لماذا تلجأ الدول للحرب.

في أعقاب الحرب العالمية الأولى برز منظرون ميدانيين اهتموا بالاستراتيجية و من بين هؤلاء Fuller و النقيب Lidel Hart حيث أنه جرح في الحرب العالمية الأولى و تفرغ بعدها للدولة و التنظير في الجيش البريطاني و اعتمد على منهجية تجريبية في دراسته للاستراتيجية مركزا على دراسة المعارك الكبرى عبر التاريخ محاولا من خلال ذلك اكتشاف القوانين الاستراتيجية التي تؤدي إلى النصر و حاول من خلال مقربيه إيجاد السبيل لتحقيق النصر بأقل تكلفة لكنه عاد إلى الطريقة التقليدية فقدم مبادئه في الحرب على شكل نصائح.

كانت الحرب العالمية الاولى الحقل الذي جربت فيه اسلحة جديدة كثيرة أهمها الطائرة و الدبابة و الغواصة و إذا كان Fuller قد اهتم سلاح الدبابات في بريطانيا و حاول دون جدوى إقناع

---

[2] - حسين سنطوح ، **نفس المرجع السابق** ، ص62.

الحكومة البريطانية في وضع استراتيجية هذا السلاح و مكنت قواتها المسلحة فقد اهتم الجنرال الإيطالي Douhet Gilio بالطائرة و بطريقة استعمالها في الحرب و لأن فيها مفتاح النصر في الحروب المستقبلية إلا انه لاقى هو الآخر معارضة شديدة من قبل حكومته و بقيت بذلك الاستراتيجية الجوية استراتيجية جزئية حتى مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية حيث أصبحت تعرف باستراتيجية السيطرة الجوية، و هي اليوم الفكرة الرئيسية الأمريكية و استراتيجية بعض الدول التي تملك إمكانيات الأخذ بها.

في هذه الفترة الزمنية التي سبقت الحرب العالمية الثانية ظهرت إشكاليات جديدة في حقل الاستراتيجية لتحليل ظواهر الحروب الثورية و التوسعية الاستعمارية و بدأ يتضح أن الحروب الثورية لم تكن ذات أهداف عسكرية بل سياسية حضارية و عرقية.